

العنوان:	الإمام محمد الطاهر ابن عاشور وجهوده العلمية
المصدر:	أعمال الندوة التكريمية التذكيرية للعلامة محمد بن تاويت الطنجي
الناشر:	مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة
المؤلف الرئيسي:	جبران، محمد مسعود
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1997
مكان انعقاد المؤتمر:	طنجة
الهيئة المسؤولة:	مدرسة الملك فهد العليا للترجمة
الشهر:	مايو
الصفحات:	213 - 197
رقم MD:	582348
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	محمد الطاهر ابن عاشور
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/582348

الإمام محمد الطاهر ابن عاشور وجهوده العلمية

محمد مسعود جبران*

يشرفني كثيراً أن أرفع - على كاهل التقدير والإكبار - هذا البحث إلى روح العالم المغربي والمغاربي النابغ الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي - تغمده الله بواسع الرحمة والقبول - منوهاً بجهوده العلمية الرفيعة في البحث والتحقيق - ومشاركاً أحبائي الباحثين المغاربة في إحياء ذكراه الخالدة، ونشر صفحات مشرقة عن مآثره وأثاره بكتابة بحثي هذا حول ترجمة عالم مجتهد معاصر لفقيدنا ابن تاويت يعدُّ في الطلائع من علماء الغرب الإسلامي في العصر الحديث ومن أبرز أقطاب مفسريه ومحدثيه ومحققيه ومصلحيه؛ هو الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور شيخ جامع الزيتونة الأعظم، ومن أبرز

* - أستاذ بكلية اللغات - جامعة الفاتح ليبيا

المفاتي والقضاة والمؤلفين في المغرب العربي؛ ليكون الحديث عنه وعن أعماله وآثاره الكثيرة من القرائن المهمة، والإضاءات الموضحة لأجواء الحياة الفكرية والعلمية في دول المغرب العربي الكبير التي تأصلت بها - دون ريب - إسهامات الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، وأنداده الذين شاركوا في إثراء تلك الحياة العقلية في مجالات الدرس والتأليف والتحقيق والإصلاح.

لقد عمّر شيخ الجماعة الإمام محمد الطاهر ابن عاشور - أحسن الله إليه في جواره الكريم - في هذه الدار الفانية ما يناهز المائة سنة أنفقها - كما سيؤكد هذا المقال - في أعمال مشكورة ومعالم محمودة مكباً طوال حياته على التعلم والتعليم، باذلاً الجهد في التوجيه والإصلاح إلى أن تخرج بفضل أُلعيته الفحول في الدراسة والإرشاد والتحقيق وأمدً بفهومه الخصيبة العقول بزاد تربو به وتنمو، منتصراً في عطائه العلمي الغزير لعبقرية اللغة العربية التي أحبها، وتعلق بأدائها، وذائداً عن الدين الحنيف القيم في منعرج تاريخي امتحن فيه بمجابهة حضارة مادية غازية بفكرها ومستجداتها، فأعطى للدين وللحياة العقلية الإسلامية في ذلك المنعرج فكراً جامعاً بين الأصالة والحداثة، وإصلاحاً رفيعاً في عوالم التعليم والتوجيه والتأليف، كما أمدّها بنفس آخر من أنفاسه الحية تمثل في المدرسة الفاضلية التي عرف المغاربة والمشاركة أثارها فيما كان يبثه ولده الشيخ البحر العلامة محمد الفاضل ابن عاشور من باهر المحاضرة والعلم¹.

لقد أتاح لي القدر المبارك أن ألتقي في سنة 1971 بهذا الإمام المصلح خلال أمسية مشرقة من أماسي الصيف في داره العتيقة العريقة المكتنزة بالأصالة والأمجاد في ضاحية المرسى بتونس؛ فرأيت في طلعتة المهيبة ما كنا نسمعه ونقرأه من وقار السلف الصالح، وعلى الرغم من أن الإمام كان يدلف أيامئذ نحو العقد العاشر من عمره، ويعد شاهداً على النصف الأخير من القرن الماضي، والنصف الأخير من القرن الحاضر، فقد بدا لي - بفضل حفاظه وعنايته - رجلاً لم تنل منه

1 - راجع ما كتبناه عنه في مجلة «جواهر الإسلام» بتونس «طود يُغيب في الثرى»، س 1970.

السنون، فهو يمشي بقامة ربعة سمهرية القوام، خفيفة اللحم، ويتوشح بعقلية ثرية مدهشة ومسعفة، وبقلب حافظ أصاب من علوم القدامى والمحدثين، ولسان لاحظ قادر على الخوض في المسائل المختلفة، مع وقار يزينه، وفضل يبينه وأخلاق حسنة تهش للأضياف، وترحب بالوراء ببحر كثرت أمواهه، وصدر حافل ازدهمت العلوم فيه.

لقد كان هذا اللقاء بالعلامة محمد الطاهر ابن عاشور من الأمانى الكبيرة الباكورة التي طالما منيت النفس بها، وأذكر أنني حينما أسعفتني الأيام بلقاء ابنه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في صائفة سنة 1968 فاتحته لتحقيقها؛ فسرّ كثيراً بهذا واعتذر يومها بتواضعه وخلقه الرفيع بأن ظروف والده الصحية تحول دون ذلك، ووعدني بأنه سوف يمكّنني من طلبتي في وقت آخر مناسب؛ فأجلت في خلدي مؤملاً قول الشاعر البليغ حازم القرطاجني² :

منى النفس تدني منكم والنوى تقصي

فكم ذا يطيع الدهر فيكم وكم يعصي

وقول الآخر :

منى إن تكن تكن أصدق المنى

وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وكان أيادي القضاء كانت تنسج على نولها برداً عجيباً، وتحوك بخيوطها لهذا اللقاء رداءً غريباً، فقد ودّعت تونس، ولم يقدر لي العودة إليها إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك اللقاء توفي خلالها العلامة محمد الفاضل - رحمه الله - وأتيح لي اللقاء بالإمام محمد الطاهر ابن عاشور أو كما يسمونه آنئذ في تونس الشيخ الكبير تمييزاً عن نجله المتوفى³، وكان ذلك بحضور ولده الأستاذ عبد الملك ابن عاشور - حفظه الله - فسعدت بمثولي بين يدي الإمام في تلك الدار الرحيبة الحفيلة بمجادة أسرته، ومنها قماطر المكتبة العاشورية العامرة بالخطوط والمطبوع والتي طبقت شهرتها الآفاق، وجرى في ذلك المجلس من

2 - قصائد ومقطعات بتحقيق د. محمد الحبيب بلخوجة : 146.

3 - كذلك كانوا يطلقون عليه محمد الطاهر ابن عاشور الثاني تمييزاً له عن جدّه المسمى باسمه.

الحديث ما يجري بين الضالع المتهم والضليع المتفهم، ولكنني أعده من أجمل الذكريات في حياتي، فقد أمدني الإمام خلاله بترجمة موجزة لحياته الواسعة هي التي أستعين بها في كتابة هذه الكلمة مع كلمات أخر أحيل عليها في الهوامش، وببعض الذكريات والتصورات التي فاض بها حوضه، ثم انفض اللقاء المفيد الأثير الذي كان الأول والأخير بعدما امتلأت النفس بإكبار هذا العلم الشامخ.

سوف أركز الحديث في هذه المداخلة بعد المقدمة السالفة التي مهّدت بها، في هذين المحورين :

1 - ترجمة الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ضمن أوليته، وفي طوري التأثير والتأثير.

2 - في ذكر مؤلفاته وأثاره القيمة التي ساهم بها في حركة التأليف في الغرب الإسلامي.

أما جهوده العظيمة في إصلاح التعليم الإسلامي فقد عالجناها في بحث مطول فلا نطول بها⁴.

1 - ترجمته :

ينتمي الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلى الأسرة العلمية المعروفة بتونس بيت آل عاشور، وهي من الأشراف الأندلسيين الذين رحلوا من الأندلس ثم استقروا فترة بسلا قبل أن يحلوا في تونس في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، ضمن من سكنها من الأندلسيين النازحين إليها⁵.

لم تحدثنا المراجع التي بين أيدينا بشيء شاف عن والد المترجم الشيخ محمد ابن عاشور، وعن تكوينه الفكري، ومنزلته في الحياة العامة في عصره، خلا إشارة وحيدة جاءت في موضع من كلام مترجمنا دلّنا فيها على أن والده كان من أهل العلم، وإماعة أخرى أثبتتها الشيخ

4 - راجع بحثنا في مجلة كلية الدعوة الإسلامية بليبيا، تحت عنوان «منهج محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي»، ع 5، سنة 1988.

5 - «مجل تاريخ الأدب التونسي» : 268.

6 - «أليس الصبح بقريب».

الفاضل ابن عاشور في معرض الحديث عن تكوينه ونشأته؛ فذكر منها «تتبع الأحاديث التي تجري بين والدي وجدي وعمي والذين يزورونهم فيسمرون معهم بين محاورات العلم ومجادلات السياسة، ونكت الأدب والمفاكهة»⁷.

وهي الحقيقة التي أكدها الدكتور محمد الحبيب بلخوجة حينما ذكر أن مترجمنا محمد الطاهر ابن عاشور «نشأ ودرج في رعاية والده الشيخ محمد بن عاشور، وكنف جده الوزير»⁸. ويظهر أن هذا الوالد مع اتصافه بالعلم والمشاركة فيه لم يبلغ مبلغ ولده الطاهر ابن عاشور الأول، كما لم يبلغ ولده محمد الطاهر ابن عاشور الثاني.

بيد أن المراجع تحدثنا بعد ذلك في شيء من الاتساع المفيد عن جدِّي مترجمنا اللذين كانا أكثر شهرة من أبيه، وجده لأمه واللذين تركا - كما سنوضح - بعض الطوابع العلمية والنفسية المهمة ليس في الحياة السياسية والعلمية في تاريخ الحياة العامة بتونس فحسب، بل على حياة المترجم نفسه الذي أشاد بهما إشادة متكررة في بعض آثاره.

فجده لأبيه سميه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور كان - كما قررت وكما ألمعت المراجع التي تناولت الحياة العقلية بتونس في عصره - علماً من أعلام العلم والاجتهاد والنظر، ومن رجال الفتيا والتأليف وهو ابن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور التونسي المنشأ الأندلسي الأصل، وقد وفد جده محمد بن عاشور على تونس في سنة (1060\1650)¹⁰.

وتذكر لنا المراجع أيضاً أن جده هذا ولد في سنة (1230\1814) في مدينة تونس التي تلقى في جامعها الأعظم «الزيتونة» العلم، حيث ظهر نبوغه وتبريزه، وحيث اشتغل بعد أن نال إجازة الأشياخ بالتدريس والتأليف، إلى أن ولي القضاء والإفتاء في عهد ولاية محمد الصادق باشا، وقد اجتمعت كلمة مترجميه على غزارة علمه، وسماحة نفسه

7 - «تراجم الأعلام».

8 - إشارة إلى جده الشيخ محمد العزيز بوعتور.

9 - مجلة «جوهر الإسلام»، ع 3-4، السنة 10.

10 - «الحلل السندسية»، «تونس وجامع الزيتونة».

وعلى علو همته واشتغاره بالإفادة¹¹، فكان عند ظهور النهضة العلمية في عهد أحمد باشا من أبرز العلماء المتصدرين للفتوى والتدريس، بل كان كما وصفه حفيده «أشهر من سن في ذلك العصر طريقة النقد في دروسه»¹² فكان من المعالم والصوى الهادية لهذا الحفيد حسبما نوضح فيما بعد.

قال المؤرخ الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في معرض الحديث عن هذا التأثير «ومن عقبه السائر على منهاجه في العناية باكتساب العرفان، والاتصاف بأجمل الخلال، حفيده وسميه علامة المغرب، شيخ الإسلام أستاذنا المحبوب سيدي محمد الطاهر»¹³.

أما جده لأمه، والذي كان هو الآخر بعيد التأثير في شخصية مترجمنا فهو العلامة الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور، الذي ذكر الشيخ محمد الخضر حسين أن نسبه يتصل «بالشيخ عبد الكافي القرشي، دفين صفاقس والشيخ عبد الكافي هذا قد جاء في التاريخ أنه من ذرية الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه»¹⁴.

ولد هذا الجد في مستهل رجب سنة (1240\1824) ونشأ نشأة علمية، إذ تلقى معارفه على جلة علماء الزيتونة من أمثال الشيخ محمد بن الخوجة والشيخ محمد النضر والشيخ إبراهيم الرياحي والشيخ محمد سلامة والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الذي سبقت الإشارة إليه، وأعلن منذ نعومة أظفاره عن ذكاء وألمعية بلغت به إلى تقلد المناصب المهمة في الدولة الحسنية بدءاً من خطة الكتابة، وانتهاء إلى الوزارة الكبرى¹⁵.

وقد كان هذا الجد إلى ما اشتهر به من الحياة السياسية الناجحة

11 - «عنوان الأريب»، 2 : 122، «شجرة النور الزكية» : 392، «الأعلام» 6 : 173، «مجلد تاريخ الأدب التونسي» : 268.

12 - «أليس الصبح بقريب» : 126.

13 - «مجلد تاريخ الأدب التونسي» : 269.

14 - «تونس وجامع الزيتونة»، ص 89.

15 - «الروزنامة التونسية» سنة 1326 ص 24 - «تونس وجامع الزيتونة»، 89، «أليس الصبح بقريب»، 96-97، 118.

معدوداً من العلماء المشهود لهم بالتبحر والتحقيق، ومن العاملين في حقول الإصلاح والنهضة¹⁶. على أن الذي يعنينا في هذا المقام أن نثبت أثر الشيخ محمد بوعتور في مسار حياة حفيده العلامة محمد الطاهر ابن عاشور، وفي تقديره أن هذا الأثر ظل موصولاً في حياة هذا الحفيد منذ الاستهلال إلى اليوم الذي التحق فيه جده بالرفيق الأعلى في غرة المحرم سنة 1325- 4 فبراير سنة 1907¹⁷.

ففي أواخر العصر الحسيني الأول، الذي ظهرت في سنواته حركة علمية وإصلاحية، أخذت تتلمس طرق الخلاص من عصور اتسمت بالعمق ولد مترجمنا محمد الطاهر ابن عاشور في قصر جده الوزير محمد العزيز بوعتور في المرسى، وذلك في شهر جمادى الأولى من سنة 1296 سبتمبر 1879¹⁸.

وفي رحاب هذا البيت، وفي بيت والده الشيخ محمد بن عاشور نما وترعرع وتفتحت أكمال مداركه على ثقافة بيتية موروثية، وتقاليدي مرعية كما تفتح على ثقافة عصره الزيتونية التي قام بالحفاظ عليها أسياد بارزون¹⁹، وعلى حركة نهضوية، انبعثت فتية بإصلاح الوزير الشهير خير الدين باشا، الذي بدأ في عهده تأسيس الصادقية²⁰، وتنظيم التعليم الزيتوني، وإنشاء المكتبة العبدلية، كما ظهرت العناية بتشجيع الطباعة والصحافة.

في هذا الأفق أخذت تتشكل مدارك الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وتتكون ثقافته وعقليته.

فبعد أن حفظ القرآن الكريم في مسجد سيدي أبي حديد في القصبة على شيخه محمد الخياري²¹ وحفظ بعد ذلك بعض المتون

16 - راجع المراجع السابقة، وتراجع الاعلام : 141.

17 - راجع المراجع السابقة، وتراجع الاعلام : 141.

18 - ورقات في ترجمته، مجلة «جوهرة الإسلام»، العدد 3-4، السنة العاشرة، «تونس وجامع الزيتونة» ص 123.

19 - راجع كتاب «تونس وجامع الزيتونة» وكتاب «الحركة الأدبية والفكرية في تونس».

20 - راجع «تراجع الاعلام» : 47.

21 - ورقات في ترجمة الإمام أمدا بنها، الورقة الرابعة : جوهرة الإسلام ع 3-4 س. 1398-1978.

العلمية، التحق بجامع الزيتونة وحلقاته العلمية سنة 1310\1892)²² تدفعه روحه الطموح للتحصيل فتلقى تعليمه على المناهج التقليدية برعاية الشيخ عمر بن الشيخ الذي تولى ضبط دراسته باختيار الكتب الموافقة، والشيوخ البارزين، والمواعيد المناسبة للدرس ولسنه وملكاته.

فقرأ من كتب النحو «سيد خالد والقطر والمقدمة والمكودي ولامية الأفعال والأشمولي والمغني بشرح الدماميني، ودرس البلاغة فقرأ الدمنهوري على السمرقندية والسعد على التلخيص والمطول، وفي المنطق قرأ السلم والتهذيب، وفي الكلام قرأ الوسطى والعقائد النسفية والمواقف، وفي الفقه درس الدردير وميآرة على المرشد والكفاية على الرسالة والتاودي على التحفة، وفي الفرائض قرأ كتاب الدرّة وفي فن الأصول درس الحطّاب على الورقات والتنقيح للقرافي والمحلّى للسبكي وفي الحديث شرح غرامي صحيح، وفي السيرة الشفاء بشرح الشهاب الخفاجي»²³

كما تدرّج بعد ذلك في دراسة كتب الحديث المتقدمة. وقد تخرج في تلك المقررات بشيوخه من أمثال محمد الطاهر جعفر ومحمد النخلي وعمر ابن عاشور ومحمد النجار وصالح الشريف. وشب بذلك - كما يقول زميله في التحصيل الشيخ محمد الخضر حسين - «على ذكاء فائق وألمعية وقادة»²⁴ وقد صقل هذا الذكاء وهاته الألمعية بتوجيه والده وجده وبمطالعة في المكتبة العاشورية والمكتبة العثورية، وبما تلقاه عن أكابر العلماء مثل شيخه سالم بوحاجب «الذي كان شعلة من الذكاء النادر ميالاً إلى تحقيق الغايات والأسرار من المسائل العلمية، نزاعاً للنظر إلى الأصول العالية في كل فن، مع حاسة نقدية خارقة للعادة سمت بها منزلته العلمية»²⁵، كما تأثر بجده محمد العزيز بوعتور

22 - المصدر نفسه.

23 - د. محمد الحبيب بلخوجة «شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأعظم» مجلة جوهر الإسلام ع 3-4.

24 - «تونس وجامع الزيتونة» : 89.

25 - تراجم الأعلام لمحمد الفاضل ابن عاشور : 221. أركان النهضة الأدبية بتونس : 16، الحركة الأدبية والفكرية في تونس.

«الذي أصبحت له الراية المرفوعة في صحة الفهم، وكمال التحصيل، وتحقيق المعاني، ورشاقة المباحث، مع استكمال الثقافة الأدبية من ضبط اللغة ورواية الشعر، والتحلي من أذواقه العربية»²⁶.

ويبدو أن هذا الجد قد راقه ما يتمتع به حفيده من سرعة الهاجس والذكاء الوقاد، فبذل جليل وقته في إقرائه ومؤانسته والرقى بعقله كما «كتب له بخطه نسخة من المفتاح للسكاكي، ونسخ له متن البخاري في جزء فريد، وجمع له في دفتر كبير نصوصاً من عيون الأدب ونصوصه».

ويظهر أنه لم يقتصر على ما حصله من العلوم العربية والإسلامية على أولئك الشيوخ؛ فقد جنح إلى محاولة اكتساب اللغة الفرنسية التي أخذها عن أستاذه أحمد بن ونّاس الحمودي²⁷، وإن كان تحصيله فيها - كما يلوح من آثاره - لم يرق إلى الآفاق العالية من التأثير.

وقد تخرّج بعد ذلك بشهادة التطويع من جامع الزيتونة في سنة (1317\1899)²⁸ ليبدأ مرحلة العطاء التي رشح لها، والتي بدأت منذ أواخر العهد الحسيني الأول، وطيلة العهد الحسيني الثاني بكامله وامتدت غير منقطعة إلى عهد الاستقلال بتونس.

وما من ريب في أن هذه المرحلة ابتدأت عندما سُمّي مدرساً في جامع الزيتونة بعد حصوله على شهادة التطويع، وفي أثناء حصوله بعد ذلك على رتبة تدريس الطبقة الثانية في سنة (1321\1902)²⁹، ثم تدرّج في سلك التعليم والتدريس بجامع الزيتونة إلى أن تحصّل بفضل جدارته ومثابرته وتوفيقه على رتبة التدريس في الطبقة العليا فيه وذلك منذ عام (1323\1905)³⁰، وقد لفت أنظار طبقته من الشيوخ

26 - تراجم الأعلام : 144.

27 - مجلة جوهر الإسلام، مقال د. محمد الحبيب بلخوجة.

28 - الترجمة التي أمدنا بها المترجم الورقة 1.

29 - الترجمة التي أمدنا بها الورقة 1.

30 - الترجمة التي أمدنا بها، الورقة : 1.

وتلاميذه الذين اتصلوا به في تلك الحلقات بما قام به من تدريس الكتب العالية مثل دلائل الإعجاز و«الشرح المطول» للتفتازاني، و«شرح المحلى» لجمع الجوامع ومقدمة ابن خلدون، وموطأ مالك بن أنس وديوان الحماسة لأبي تمام³¹ وغيرها من الكتب التي أثراها بتعليقاته وأنظاره وترجيحاته.

وقد شهد له بهذا التوفيق في تدريسها وإحياء لفنون من العلم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي حيث ذكر أنه «تفرد بالتوسع والتجديد لفروع من العلم، ضيقها المنهاج الزيتوني، وأبلاها الركود الذهني، وأنزلتها الاعتبارات التقليدية دون منزلتها بمراحل، فأفاض عليها هذا الإمام من روحه وأسلوبه حياة وجدة، وأشاع فيها مائية ورونقاً، حتى استرجعت بعض قيمتها في النفوس، ومنزلتها في الاعتبار»³².

ويبدو أن الشيخ ابن عاشور قد برم - مع هذا الإصلاح الجزئي في تجديد المناهج والمقررات - من طرائق التعليم الزيتوني، ومن نظم الإدارة والأساليب المتبعة، ومن الأحوال التي كان عليها الأساتذة والطلاب على حد سواء، فتمعر من تلك الأنظمة التعليمية والتربوية السائدة. وقد قوي هذا الشعور عنده منذ أن كان طالباً محصلاً إلى أن غدا مدرساً ناهضاً بأعباء التعليم، ثم عظم بظهور الحركات والدعوات الإصلاحية في الشرق، وبخاصة حركة الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده اللذين عملا على أن تكون لجريدة «العروة الوثقى» الممثلة لدعوتهما وأفكارهما إصلاحية جماعات أخرى يمثلونها في مختلف البلدان في الشرق والغرب، ومنها تونس التي ظهرت فيها من قبل حركة خير الدين باشا الإصلاحية، مما جعلها في نظرهما تربة صالحة للغرائس والإصلاح³³.

ومن الإشارات التاريخية المفيدة والمهمة التي تلقي إشارات كاشفة

31 - «تونس وجامع الزيتونة».

32 - «عيون البصائر».

33 - «الحركة الفكرية والأدبية بتونس»: 75.

على مسيرة حياة مترجمنا وأطوار فكره، ومدى ارتباطه بالحركة الإصلاحية المذكورة، تلك الإشارات التي يومئ بها بعض المؤرخين إلى زيارة الشيخ محمد عبده إلى تونس، وما تركته من طوابع تعبوية في نخبة المصلحين بتونس والمغرب العربي الكبير؛ فقد زار الشيخ محمد عبده تونس زيارته الأولى في سنة (1302\1884)³⁴ واتصل بالشيخ سالم أبي حاجب وأنداده من علماء جامع الزيتونة³⁵.

ومن المؤكد أن مترجمنا لم يتصل بالشيخ محمد عبده في تلك الزيارة، ضرورة أن سنه أنثذ لم تتجاوز الخامسة من السنين، ولكننا نرجح أنه استفاد من معطياتها الفكرية وأثارها من طريق أشياخه المذكورين الذين اتصلوا بالشيخ محمد عبده وارتبطوا بجمعيته العروة الوثقى، ولكنه استفاد فائدة مباشرة من زيارة هذا الشيخ الأخرى إلى تونس في سنة (1321\1903)³⁶ حينما كان شاباً في الرابعة والعشرين من عمره، يمتلئ حيوية، ويشغل مرتبة التدريس من الطبقة الثانية، بل كان يعتبر من «أبرز مدرسي الجامع شهاباً وذكاء وعلماً وأدباً، وأسبقهم إلى اتباع أستاذه الشيخ سالم بوحاجب والشيخ محمد النخلي في تأييد الفكرة الإصلاحية»³⁷.

لقد كان الإمام محمد الطاهر ابن عاشور من أكثر العلماء التونسيين الشباب التفافاً بالإمام الشيخ محمد عبده، ومن أحرصهم على غشيان مجالسه وحضور أسماره التي عقدها في تونس يجسد فيها دعوته التربوية الهادئة التي تكونت لديه بعد انفصاله عن الشيخ جمال الدين الأفغاني³⁸.

ومن الراجح أن مترجمنا استمع إلى محاضرة الشيخ محمد عبده

34 - «الحركة الأدبية والفكرية بتونس»، «الثقافة في الشمال الإفريقي»، «الحركة الأدبية والفكرية بتونس»: 59.

35 - تراجم الأعلام: 229، أركان النهضة الأدبية: 19.

36 - «الحركة الأدبية والفكرية في تونس»: 75.

37 - المصدر نفسه: 75.

38 - راجع كتاب قدرتي قلعجي «ثلاثة من أعلام الحرية».

«العلم وطرق التعليم»³⁹ التي ألقاها في الخلدونية، فأعجب بها وبمنهجه في الدعوة والإصلاح، ومن الراجح أيضاً أن الشيخ محمد عبده قد أعجب هو الآخر بالمترجم وبتحرر فكره، فاعتبره - بعد المفاتشة - «سفير الدعوة في الجامعة الزيتونية»⁴⁰.

ومن علائم إعجاب مترجمنا بالشيخ محمد عبده وبطرائقه في الإصلاح والنظر والدعوة أنه كتب - عندما أفتى الشيخ محمد عبده في المسألة الترنسفالية المتعلقة بلبس المسلم القبعة وأكله ذبائح النصارى - وهي المسألة التي اشتد حولها الخلاف - رسالة فقهية مؤيدة لفتوى الشيخ محمد عبده، اتصفت بأنها «مدعمة بالأدلة على المذهب المالكي لتأييد مفتي الديار المصرية»⁴¹.

وقد ظل الشيخ يعمل بعد ذلك على بث دعوته الإصلاحية في أوساط الزيتونيين، يقنع المتفتحين من زملائه المدرسين بوجوب القيام بهذه الدعوة، والنهوض بالتطوير، ويغري الطلاب المخلصين بالتفاعل مع أفكاره الإصلاحية التي جوبهت في ذلك الوسط التقليدي المحافظ بالمعارضة بل والعناد⁴².

ومن مظاهر نشاطه في فورة شبابه الطموح أنه ألقى إلى جانب دروسه المجددة في الزيتونة دروساً أخرى في كل من «الصادقية» و«الخلدونية»⁴³، وقد كان عضواً في مجلس الخلدونية ونائباً لرئيسها وهي التي ألقى في قاعاتها محاضراته «وكان أول من حاضر باللغة العربية في تونس»⁴⁴.

كما اشترك في إدارة الكلية الزيتونية ضمن هيئة النظارة من سنة (1907\1325) إلى سنة (1932\1351) وفي تأسيس «الجمعية

39 - «الحركة الأدبية والفكرية في تونس» : 76.

40 - المرجع نفسه : 76.

41 - «الحركة الأدبية والفكرية في تونس» : 76-77.

42 - المرجع نفسه : 78، كلمة الأستاذ الشاذلي القليبي في تأبينه، مجلة «جوهر الإسلام» ع 3-4، 1978.

43 - الحركة الأدبية والفكرية في تونس : 105.

44 - الحركة الأدبية والفكرية في تونس : 105.

الزيتونية» وفي لجان إصلاح التعليم سنة (1911\1329)⁴⁵. كذلك انتسب إلى هيئة القضاة منذ سنة (1911\1329) فعيّن في المحكمة العقارية ثم سُمّي قاضي قضاة المالكية سنة (1913\1331)، ورفقي فسمّي مفتياً مالكيّاً سنة (1923\1341) ونائب كبير المفتين في سنة (1925\1343) وانتهى في هذه الخطة إلى أن تولى مسؤوليات منصب كبير المفتين في سنة (1927\1345) فكان أول من أُسندت إليه هذه الخطة بتونس.⁴⁶

والذي يلفتنا في ترجمة هذا الإمام حيويته الفائقة، وعمله الذائب، ورغبته العارمة في التحرير والتحبير، وميله الدائم - على الرغم مما تولاه من تلك المناصب المتقدمة سواء في نطاق الجامع الأعظم تدريساً ومشيخة، أم في سلك القضاء والإفتاء - إلى تأليف الآثار العلمية النافعة على خلاف الكثير من معاصريه وأنداده ليس في تونس فحسب، بل في الكثير من الأمصار؛ فقد أدرك الأشياخ والطلبة فيه أنه ما درّس علماً من العلوم إلا صنّف فيه وهو ما يتوضح عند الحديث عن آثاره ومؤلفاته.

وقد كان خلال تلك السنين التي أمضاها في خطة القضاء والإفتاء شديد التوق والرغبة في العودة إلى إظهار منهاجه الإصلاحية للرفقي بجامع الزيتونة، وتطوير برامجه باعتباره سفير الدعوة فيه، وبخاصة بعد أن عاقته الظروف وقاومه المعتدون من الجامدين عن تحقيقه.⁴⁷ ولم يتحقق له هذا الأمل إلا بعد صراع مرير وذلك عندما انعقد مؤتمر المدرسين في صائفة سنة (1944\1363)⁴⁸ والذي طالب بعودته من جديد إلى المشيخة التي اعتزلها فسمّي في ربيع الأول من سنة (1364\1945) شيخاً للجامع الأعظم وفروعه، هنالك اشترأبت الأعناق إليه وتطلعت إلى برنامجه الإصلاحية وتلقى «المدرسون والطلبة وعموم

45 - الترجمة التي أمدنا بها الإمام الورقة : 1.

46 - الترجمة التي أمدنا بها الإمام الورقة : 1. د، محمد الحبيب بلخوجة، مجلة «جوهرة

الإسلام» ع 3-4.

47 - راجع كتابه «أليس الصبح بقريب».

48 - «الحركة الأدبية والفكرية في تونس» : 218.

الخريجين والرأي العام التونسي تلك التسمية بأعظم الابتهاج»⁴⁹. وعلى الرغم مما وضع أمامه من عوائق وعواشير من قبل الإدارة الفرنسية المهيمنة سياسياً وإدارياً على تونس، فإن ما لقيه من الباي والزيتونيين من عون ومعاوضة بعد أن تهيأوا لقبول فكرة الإصلاح ومبادئ الترقى جعله يشق طريقه بشيء غير قليل من الوثوق والثبات فنهض بزيارات تفقدية وتوجيهية إلى فروع الجامع الأعظم، وإلى اللقاء بالشيوخ من مناصري منهاجه الإصلاح، ووقف عن كذب على حاجاتها ومطالبها، وصار لهذا الجامع بذلك التفاعل تأثيره البعيد على حياة الناس بتونس، كما تظهر أثره في نطاق المغرب العربي الذي صار طلابه يؤمنون رحاب ذلك الجامع ويفيدون من معطياته وتطوره⁵⁰. وقد اكتسب الشيخ بفضل جهوده العلمية الواسعة ومنهاجه الإصلاحية الشامل، وبفضل ما كان يسهم به من أبحاث ومقالات في الصحف التونسية والدوريات الشرقية شهرة واسعة انتخب بأثرها عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية سنة (1359\1950) وعضواً عاملاً في المجمع العلمي بسوريا سنة (1364\1959)⁵¹ كذلك عين شيخاً عميداً للجامعة الزيتونية عند تأسيسها بل تطويرها الشكلي الأخير في سنة (1376\1956)⁵² فزاد اهتمامه بالإصلاح واستمر في العمل في ضبط المخطوطات بجامع الزيتونة في المكتبتين العبدلية والأحمدية والتعريف بها وفهرستها، وهو العمل المتواصل الذي تابعه بعناية تامة وأناة من سنة (1322\1905) إلى سنة (1378\1960)⁵³. يقول الأستاذ المرحوم على الشنوفي «وأبرز أعمال سماحة الأستاذ المرحوم محمد الطاهر ابن عاشور هي تلك التي قام بها على رأس جامع الزيتونة، عاملاً بما عرف به من حزم وجد على مساعدة الحوار بين الإسلام والعالم المعاصر؛ فأسهم

49 - المرجع نفسه : 218.

50 - د. محمد الحبيب بلخوجة «شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور» مجلة «جوهر الإسلام» ع 3-4، 1398-1978، «أليس الصبح بقريب».

51 - الترجمة التي أمدنا بها الإمام الورقة : 2.

52 - «حوليات الجامعة التونسية» ع 10 س 1973.

53 - من الترجمة التي أمدنا بها المترجم : الورقة 2.

متفانياً مدة نصف قرن بنشاط خصب في جميع المبادرات الرامية إلى تنظيم هياكل التعليم الزيتوني، وتدبير برامج قصد النهوض به وتطويره»⁵⁴.

وظل عطاؤه في إطار تطوير الجامع الأعظم والرقي به وصولاً إلى أن صدر الأمر المؤسس للجامعة الزيتونية في (31 مارس 1960) والمنقح بأمر غرة مارس وهو الأمر القاضي بأن تكون الجامعة الزيتونية كلية تحت اسم كلية الشريعة وأصول الدين ضمن كليات الجامعة التونسية فتخلّى عن منصبه ليتولاه ابنه العلامة محمد الفاضل ابن عاشور⁵⁵.

وما من شك في أن السنوات الأخيرة التي ختمت بها حياته الحافلة بالعطاء العلمي والإصلاح التعليمي قد منحتة فرصة التفرغ للتأليف والتصنيف، ولاستكمال ما شرع فيه من أعمال علمية، وقد كان من أعظم الدروس المستفادة من حياة هذا الإمام في الخاتم أنه كان - كما قرر قولاً وكتابة - «يشغل بالمطالعة والتحرير بصفة مطردة دون انقطاع ولا فتور، ولا يهمل لحظة من وقته ولو بين الشواغل البعيدة عن دائرة الفكر والتحرير، متحكم في تنظيم أوقاته وأشغاله، لا يطغى شاغل من شواغله على الآخر، ولا يهمل واجبات الحفاظ على صحته ولا دواعي راحته واستجمامه»⁵⁶.

وقد توفي رحمه الله في سنة (1393\1973).

2 - آثاره ومؤلفاته :

سنكتفي في هذا المقام بذكر آثار الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومؤلفاته دون دراستها وتحليلها. والملاحظة البارزة التي يمكن أن تسجل كثرة هذه الآثار القلمية بما يؤكد اهتمام المترجم بالتأليف وتسخير وقته للتصنيف، ثم عمق هذه المؤلفات وقيمتها العلمية بما يلمع إلى بعد غور مؤلفها وتنوع معارفه، ومشاركته في عدد من العلوم

54 - «حوايات الجامعة الزيتونية» ع 10 س 1973.

55 - «حوايات الجامعة التونسية» ع 10، س 1973.

56 - الترجمة التي أمدنا بها الورقة : 2.

الشرعية واللغوية والتاريخية والفلسفية.

وقد أشرنا قبل قليل إلى مقالاته وأبحاثه القيمة التي كان ينشرها في الصحف والدوريات في بعض بلدان المغرب والمشرق والتي كان لها صداها العجيب في المحافل والجامع العلمية بما اتسمت به من العلم والقدرة على التحليل والترجيح؛ نأمل أن يهيء الله من يجمعها وينشرها.

أما مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة فيمكننا أن نصنفها في الحقول البحثية التالية :

1 - حقل التأليف

2 - حقل التعليق والتعقيب

3 - حقل التحقيق

ففي الحقل الأول يبرز كتابه الضخم في التفسير الذي سماه «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» والمشهور بـ «التحرير والتنوير» ويقع في ثلاثين جزءاً، وكتبه «مقاصد الشريعة» و«أصول النظام الاجتماعي في الإسلام» و«الوقف وأثاره في الإسلام» و«نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرزاق و«أصول الإنشاء والخطابة» و«موجز البلاغة» و«أليس الصبح بقريب» و«الدستور في السياسة الشرعية» و«تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة» و«تاريخ العرب» و«التعريف بالعلماء الأعلام».

وتطالعنا في حقل التعليق والتعقيب الكتب التالية : «كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ» و«حاشية على تنقيح القرافي» و«فوائد الأمالي التونسية على فرائد اللئالي الحماسية» و«الأمالي على مختصر خليل» و«تعليق على المطول» و«حاشية على السيلاكوتي» و«أمالي على دلائل الإعجاز» و«شرح المقدمة الأدبية للمرزوقي».

ومن أثاره في باب التحقيق «تحقيق شرح القرشي على ديوان المتنبي» و«تحقيق قلائد العقيان لابن خاقان» و«تحقيق الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» و«تحقيق ديوان ابن الحساس» و«تحقيق ديوان بشار ابن برد» و«شرح ديوان النابغة».

المراجع :

- مؤلفات الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.
- الترجمة التي أمدنا بها الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.
- أركان الحركة الأدبية، لمحمد الفاضل ابن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع.
- تراجم الاعلام، محمد الفاضل ابن عاشور، تونس
- تونس وجامع الزيتونة، محمد الخضر حسين، دمشق، المطبعة التعاونية.
- الحركة الأدبية والفكرية في تونس، محمد الفاضل ابن عاشور، تونس، الدار التونسية.
- عيون البصائر، محمد البشير الإبراهيمي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- مجمل تاريخ الأدب التونسي، حسن حسني عبد الوهاب، تونس، الدار التونسية للنشر 1968.
- مصادر الدراسة الأدبية، يوسف أسعد داغر، ج 3.
- الأسبوع الثقافي، محمد سعود جبران «العالم الذي فقدناه» ع 63\1973.
- جواهر الإسلام، 3-4 س 1978.
- «شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأعظم» د. محمد الحبيب بلخوجة، وكلمة الشاذلي القليبي.
- حوليات الجامعة التونسية ع 10 س 1973.
- «منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي» محمد سعود جبران.

